كيف اريد الرجل ان يكون

[جمعية الشبان المسيحية في القاهرة من اصلح الاندية التي يختلف اليها الشبان المصريون اذ يجتمع لهم فيها ما يروّض اجسامهم ويرقي عقولهم ونفوسهم. فمن مختلف الالعاب الرياضية خارج النادي وداخلهُ الى الرحلات العلمية التاريخية الى المكتبة التي تحوي طائفة من خيرة الكتب والمجلات الى الخطب والمحاضرات العلمية والاجتماعية التي يلقيها في منتداها افاضل الغربيين والشرقيين امور اقل ما يقال فيها انها اركان لتكوين الرجولة الحقة والخلق المتين. وقد دعيت الناشئة الآنسة (مي) الى القاء خطبة اجتماعية فيها مساء يوم الجمعة في ٢ يناير سنة ١٩٢٦ فاختارت «كيف اريد الرجل ان يكون» موضوعاً لخطبتها. وقد حضر هذه الخطبة النفيسة جمع غفير من السيدات والادباء والصحافيين والطلبة حتى غصّ المنتدى بالحضور واستغرق القاؤها نحو ثلثي الساعة. وقوطعت مراراً كثيرة بالتصفيق الحادّ. وهذا نصّها]

أيها السادة والسيدات

لئن انا أثنيتُ على هذه الجمعية النبيلة التي تسعى للتفاهم والاخاء بين مختلف الشعوب، وتحسن إلى الشبّان فتقدّم لهم الاصدقاء والوسط والمثل أينما حلوا — فاني كذلك اشكرها لادراجها اسماء النساء في سجل خطباتها ولأنها مكنتني الليلة من مناجاتكم والاتصال بأفكاركم ومساجلة عواطفكم

نحن ابناء الجيل الحائر بين وراثة الماضي، ومشاكل الحاضر، ومهاجمة المستقبل. نحن نحمل في نفوسنا نفحة العطور، وطهارة اللهيب، وحرارة الشباب وغموم الشيوخ. فما أجدرنا بالاجتماع وتبادل الآراء لنسمو إلى ما فوق هذا الافق المفعم بالارتباك والغموض إلى حيث نستمدّ وحياً وقوّة ونشاطاً!

عندما دُعيتُ إلى محادثتكم في هذا المساء قيل لي ان وقفتي هذه بمثابة التدشين لهذا المنبر من الجانب النسوي. وان هذه القاعة الجميلة التي تعالت فيها اصوات كثيرين من فضلاء الشرق والغرب لم ينطلق بعد بين جدرانها بلاغ من امرأة أو فتاة. كذلك فهمت أن اللجنة تفضّل مني اليوم الموضوع الاجتماعي على أيّ موضوع سواهُ. فكأنّ جميع المؤثرات تعاونت على تشجيعي لأرسل هذه الصيحة التي هي في صيغتها المبهمة دون

شرح ولا تعليق إنما هي عنوان لعهد جديد . صيحة عظيمة هي خطبة في ذاتها لانها تقدم وإعلان واستحداث ومصافحة واستفهام وجواب « كيف اريد الرجل ان يكون »

هوذا الرجل في ضلاله وغوايته (ليس انتم) . . . في ملاهيه وملذاته ، في خصوماته وجهله . ها هوذا على موائد الميسر والشراب والمخدرات ، وها هوذا في تلك السبل المظلمة المتلوية التي يعرفها هو ونجهل نحن كنهها وجودها . . . هوذا الرجل الذليل الاحمق (ليس انتم) الضعيف الجاحد الخائن الذي هو حشرة مضخمة تمتص دماءها . وها هوذا من ناحية أخرى الرجل ذو الشمم والاباء والعزة والاخلاص ، ورب الحكمة ، ورب القوة ، ورب الابداع وبطل الجهاد الذي يثير الاعجاب والرجاء ويشرف بني الانسان !

انظر الى هاتين الصورتين فتولد في الطيف التي وبينهما اقف انا وانتم وكل باحث وارد ان استجلي الصورة امامكم وامام نفسي فأعلم كيف اريد الرجل ان يكون

لعل هذا البيان الموجز يرضي الذين منكم يتعنون موضوعي بالجوي المتطرف ، اولئك المتشائمين من تحرير المرأة الخائفين من إطلاق العنان لفكرها وقلمها . وربما كان بينكم من يقول : لقد رضينا بالموضوعات التهذيبية والاخلاقية والادبية والوطنية . وسكتنا عن تلك الموضوعات المزعومة بالسياسية وما هي الا تماحكات ومشاحنات يصيح فيها الجميع ولا يفهم احد شيئاً . وأصغينا متفكهين الى الكلام عن المساواة الجنسية ، وعن الجلوس في مقاعد النيابة ، وتقلد الوظائف والنطق بالاحكام . وشجعنا ما هو فوق ذلك جميعاً ، اي الموضوعات العمرانية والعلمية والنظرية والفلسفية . أفا بقي للمرأة الا ان تجيء فتصور الرجل وتحدد شخصيته وتبنئه بما عليه ان يكون ؟ أليس هنا مجال الاستشهاد بالمثل القائل :

« قلنا لصاحبنا البيت بيتك ، قال طيب اتفضل سعادتك اطلع منه » ؟

وجوابي ، ايها السادة ، ان هذه الكلمة كانت خلاصة حياة المرأة سواء أكانت عالمة بأنها نقولها ام كانت جاهلة . ان كل امرأة قالت لكل رجل كيف تريد ان يكون . قالت ذلك في حديث فردي جلي او في الفاظ مبهمة غامضة ، او في اعمال وامثال وإغراء وايحاء . قالت له ذلك قريبة وغريبة ، محبوبة ومقوتة ، محترمة ومحتقرة ، مخلصة ومخادعة ، راقية ومتقهقرة . تمر المرأة بالرجل فتلقي اليه بالنظرة التي تمتحن نسيج مواهبه وخصائصه فتقول له « كن ! » فيكون . هي التي اثارت حرب طروادة وهي التي كان لها يد في النهضة بعد القرون الوسطى بالهام دانتي وبترارك وتهيئة نفوس الاقوام . هي

التي دفعت بلوثير الى اثارة الحرب الدينية . هي التي أفهمت هملت كيف تكون الامومة والزوجية خائنة غادرة فسلحت يده بسيف الانتقام . هي الأم التي ملأت قلب ميرابو يأساً ، وهي الحبيبة التي رفعته بعدئذٍ وخلقت منه رجلاً جديداً . وجميع هؤلاء الرجال الذين يسوسون الشعوب و يديرون شؤون العالم ، وجميع اولئك الرجال الذين يقومون بالاعمال الوضيعة ، والمجرمون في الليمانات والسجون ، والثوّار والفوضويون والمتآمرون كلهم ، كلهم ، تنتش وراء اعمالهم عن المرأة تجد اثرها نافذاً وتأثيرها فعّالاً

بل قد يكفي ان تعرف اي رجل لتعلم ابن اي امّ هو . لستُ اعني ام الجسد فحسب فتلك قد يتفلّت من تأثيرها إذا كان ذا شخصية حيوية فعّالة ، ولكن عنيتُ امهُ بالمعنى . إذ في كل امرأة تعطف على الرجل شيء من الامومة . و يكفي ان ترى سلوك رجل لتعلم اي نوع من النساء خالط وإلى اي التأثرات هو استسلم

كلّ ذلك كان إلى اليوم خفيّاً محصوراً في دائرة معيّنة . وقد آن الوقت لتقول المرأة كلمتها صريحة عالية . فالرجل ينتقدنا و يتهمنا ، يهجوها و يدلّلنا و يبدي رأيهُ في زينتنا وفي ثقافتنا وفي تربيتنا وفي شعرنا المجزوز ، وما فتئ يصوّر لنا شخصيتنا منذ ابتداء العالم . يفعل ذلك شاعراً وناثراً ، مشطراً ومخمساً ، عالماً قانونياً وعالماً اخلاقياً ، رجلاً عادياً وسوبرمانا عليّاً . فلماذا لا يكون لنا نحن كذلك رأينا الصريح في اخلاقه وأساليبه وسلوكه وهندامه ؟ لماذا لا نبدي لهُ ملحوظاتنا فيما يتعلّق بكلماته ونظراته ، و بالديوس الذي يضجّ بالغياه في ربطة عنقه ، و بالمنديل الذي تشرئبّ زواياهُ الحادّة الاربع من الجيب الصغير الانيق أو غير الانيق ؟ إنّ رجل اليوم صنيعة المرأة في الاجيال الماضية ، ورجل الغد سيكون خلاصة جميع هذه الاجيال مصقولاً بتأثير الحاضر . ولئن كان أثر كثيرات من النساء المسكينات الجاهلات مهدّماً لشخصيات الرجال ، غاضّاً من كرامتهم ، فهذا لا يعني أن الجيل بأسره توّاق إلى صوت المرأة يحدو شادياً ، و يستحثّ متحمساً ، و يسوق في السبيل الموصلة إلى معارج الارتقاء

***

ايها السادة والسيدات ،

منذ اربعة وعشرين قرناً طاف فيلسوف يوناني احياء اثينا يبحث عن رجل ليس على نور الشمس المشرقة ولكن على نور مصباح يحمله بيده . ذلك كان ديوجينوس اشهر اهل مذهبه الذين بلغ احتقارهم للنوع الانساني واللياقة الاجتماعية انهم نعتوا تقوسهم

بالكليين نسبة الى الكلاب . والمصباح يدلُّ على انَّ في ذهن الفيلسوف صورةً للرجل الامثل لا يستطيع ان يعثر عليها بين صنوف البشر المعروضة امامهُ . واذكروا ان هذا السخر بالطبيعة الانسانية واشهار افلاسها حدث في القرن الرابع قبل المسيح ، اي في العصر الذي ازدهرت فيهِ حضارة اليونان فبلغت اوجها في فنون السياسة والتشريع والحرب والآداب والفنون والفلسفة

على ان اليونان كانوا ابداً متعصبين في تعريف الرجل الامثل . فانكم تذكرون ان بين الاسماء العظيمة التي كانت وما زالت لعقولها وآرائها توحي الى العالم ، لم يجودوا بنعت الحكيم الاَّ على سبعة من رجالهم لا نجد بينهم اسم سقراط ولا اسم فيثاغورس ، ولكننا نجد صولون المتشرِّع وواضع قواعد الدستور الدمقراطي الذي تفرَّع منهُ بعدئذٍ شتى النظم الدمقراطية المعروفة . وعليهِ يكون جميعُ المتحدِّثين اليوم بالدمقراطية والدستور ، مدينين لذلك الحكيم القديم ، ووجب عليهم ان يهتفوا الوقت بعد الوقت لارهاف قرائحهم وتشديد عزائمهم : فليحيى صولون !

امَّا انا فابلغ صورة اعرفها للرجال واقدارهم ومراتبهم اجدها في اللغة العربية . وهي صورة خالدة لانها لا تقتصر على الرجل في جيل دون جيل ، بل يتطوَّر معناها مع تطوُّر الجماعات فيتسع او يضيق ويظلُّ دواماً محكماً صادقاً بليغاً

فقد قالت العرب انَّ الرجال ثلاثة : رجل هو كلُّ الرجل ، ورجل هو نصف الرجل ، ورجل هو لا رجل . واردفوا هذا التلخيص البديع بهذا البيان البديع : فالرجل الرجل هو الذي يعلم ويعلم انهُ يعلم ، والرجل نصف الرجل هو الذي لا يعلم ويعلم انهُ لا يعلم ، والرجل لا رجل هو الذي لا يعلم ولا يعلم انهُ لا يعلم

لست أدري هل هذا ما قالتهُ العرب بالحرف ، ولكني مستعدٌّ ان انحل هذا القول وان أزيد عليهِ بأن العلم هنا ليس بمعنى العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها . بل هو يجمع في تقديري بين المعرفة المطلوبة في وسط الرجل وبين مقدرة هذا الرجل على تطبيق معرفتهِ على حاجات وسطهِ واستثمار تلك المعرفة بأكرم الاساليب وأليق المساعي لخيرهِ وخير محيطهِ جميعاً

ومع التسليم بأن هذه الصور الثلاثة وما يتخللها من مختلف الشخصيات ضرورية لتشكيل النوع الانساني وليكون هناك مجال للتحسن والتقدم والتطوُّر ، فانَّ كل ايجابي وعطوفٍ يتجه نحو الرجل الذي هو كلُّ الرجل ، الذي يعلم ويعلم بسيطاً سعيداً انهُ يعلم

ويحقق عملهُ في عملهِ . الرجل الذي تمتزج فيهِ مواهب العقل ومواهب الشعور ومواهب التنفيذ . ليس هو بالرجل الذي يحث عنهُ ذلك الكلبيّ الساخر ، ولا هو سوبرمان نيتشه ، ولا هو بالمعصوم من الزلل ، فانكمال مستحيل في الطبيعة البشرية . ولكنهُ الرجل الكامل كمالاً نسبيًّا في ذاتهِ ، الذي تكفّر محاسنهُ عن مساوئهِ لانك اذا احصيتَ لهُ نقصاً وجدت لهُ فضلاً يقابلهُ . الرجل الذي يكون فعلهُ حلاً للمشاكل لا عقدة فيها ، نوراً في الظلام لا ظلاماً في النور ، تعزية في الالم لا ألماً في التعزية ، نشاطاً في اليأس لا يأساً في النشاط . الرجل الشهم الكريم الجميل جمال الرجولة المهيب . الرجل المرء الحصيف ، وفي نفسهِ ذلك الحنان الواسع الذي ليس من خصائص الضعفاء كما يزعمون ، بل هو من أنفس مواهب الاقوياء . الرجل الذي يمرُّ في زمانهِ وقومهِ فينتفع بجميع الممكنات المقدَّمة لهُ ، ولكنهُ يترك على ذلك الزمان وذلك القوم طابعهُ المبين !

كلُّ موهبة من مواهب الرجل الرجل يستغرق بسطها وشرحها ليس محاضرات ومؤلفات ضخمة فحسب ، بل حياة ذلك الرجل في مختلف اطوارها . لانهُ لا ينتأ يصقلها ويغنيها ، وكلٌّ منها تمتدُّ وتتسع حتى تمتزج بالمواهب الاخرى . على اني لا بدَّ ان اذكر أنَّ فكرة الرجولة في نفسي كفكرة الانوثة ، بل كفكرة الانسانية ، قائمة على محور أخلاقيّ لا استطيع تعريفهُ . ولكنهُ ككل سحر وكل عظمة وكل فوز ، نهتدي اليهِ بالبداهة إن خانتنا الشروح ، ونعلم انهُ المصدر الذي تستوحيهِ الانسانية المخلصة في سنّ أنظمتها وقوانينها . وانَّ ذلك المحور ، ذلك الاساس الاخلاقي هو كالحقيقة في تطوُّرٍ متتابع . ليس في الجوهر ولكن في الاعراض . فيظلّ متعدداً ، متنوعاً ، متلوناً في كلّ عصرٍ وكلّ جيل وفي كلّ امة !

إنَّ فكرة الخير والشر التي هي الفارق الاوَّل في الجوهر الاخلاقي ليست بالفكرة الجلية . إنها مستحيلة على كثيرين وهي على الجميع عسيرة . فكم من مرَّةٍ في حياتنا لا يكون رأينا في الاخلاق خيراً من رأي ذلك الآكل لحوم البشر . وبيان ذلك انَّ احد المبشّرين أقام اعواماً بين اولئك القوم يتعهَّدهم بعطفهِ ويحاول توسيع إدراكهم ما استطاع . واذ مضى يوماً لزيارة احدهم وسألهُ عن زوجتهِ ، أجاب الرجل انها غير موجودة . فقال المبشّر : مفهوم انها غير موجودة ولكن اين هي إذ لا بدَّ لي ان أراها . فقال الزوج الامين : لقد تشيتها البارحة — وكيف تشيتها ؟ — فقال الزوج : كنتُ على شيءٍ من التعب ، لا ميل لي الى العيد ، فشويتها واكلتها . فقال المبشّر مشمئزّاً حانقاً : ولكن

هذا شيء ردىء ! هذا شيء مقوت ! فأجاب الزوج المنصف : كلاّ ! لم ألاحظ شيئاً من ذلك . بل بالعكس كان اللحم في غاية اللذّة !

هذا هو ايها السادة والسيدات ، رأي الرجل الذي هو لا رجل ، وهو ليس بالنادر بين بني الانسان . ومن اسخف مظالم الحياة ان تضع العلاقات بين مثل هذا العقل و بين الطبائع الحارّة الذكية الجميلة ، بل وان تجعل لهُ عليها الامر وحق السيطرة

***

وهنا يعترضنا مشكل كبير ، لابدّ انهُ يجول الآن في خواطركم — ذلك اننا كثيراً ما نرى ان النجاح وما يحالفهُ من ثروة وجاه وهناء واحترام واكرام ليس دواماً من نصيب اهل الاخلاق والضمائر . فاذا قدّر النجاح والظفر للكذب والمزاوغة والاحتيال وقلب الحقائق بينا قُدّر الفاقة والشقاء وربما السخرية والاحتقار ايضاً — للفضل ، فكيف لا يترعُ الفاضل الى تغيير خطتهِ ؟ وهل حالتهُ هذه تشجع المقتحمين سبل الحياة فيختارون الصدق والاستقامة أم هم يتجهون الى حيث تكون جهودهم مزهرة مثمرة فتكون الواسطة مبرّرة بالنتيجة ؟

اكرّر ان هذا مشكل خطير . لاننا ان نحن احتقرنا اولئك المتطفلين الحاملين الذين لا يأتون عملاً بل يترقّبون على حساب العاملين فاننا نعترف بحق المجاهد والموهوب على ان يُكافأ بمواهبهِ وجهودهِ . والنجاح مرهف للعزائم العظيمة ، منشط للطبائع الصادقة الحارّة . بل اقول اننا لا نتصوّر الرجل الرجل الاّ في هالة من النجاح والظفر ، لاننا قلنا انهُ يطبق معرفتهُ وخبرتهُ وبراعتهُ على الاحوال المحيطة بهِ فيستثمرها خير استثمار . فحلّ هذا المشكل إذن هو من بعض مواهب الرجل الرجل . ومع الاعتراف بان للحظّ يداً قويةً في تكييف الاحوال ، وانّ الدهر امواجٌ والحياة اطوار ، فاننا نقرّر ان للنجاح ابواباً كثيرة وصوراً عديدة . والرجل الرجل هو البارع القوي الذي يتشدّد في الاندحار و يخلق من الشجاعة والكرامة والتدبير مظاهر جديدة بينا أنصاف الرجال وارباعهم يباهون بنجاحهم الحائل الضئيل . إنّ النجاح المالي والاجتماعي زينة المسرح واثاث التمثيل ، ولكنّ النجاح الاخلاقي والادبي ثروة الانسانية الخالدة تطمح اليها بكلّ قواها وراء الظواهر الخلاّبة التي يطلبها جميع الافراد وجميع الشعوب . وقوة الرجل الرجل تستمدّ من قوة تلك الفكرة الابدية العظيمة ولها منها حصن حصين

ايها السادة والسيدات ،

منذ ثلاثة اعوام وقفت مثل هذا الموقف تقريباً في الجامعة الاميركية ببيروت وذلك في منتدى « وست هول » حيث تشرفت بان اكون على منبره اول فتاة تكلمت في الاجتماع الذي يضم الاساتذة والطلبة كل اسبوع . يومئذ حدثت شبانا هناك عن كولمبس مكتشف اميركا وناديت بهم ان يكون كل منهم كولمبساً في بابه مع مراعاة مواهبه وامكاناته . إذ ليس لاحد ان يتخطى حدود شخصيته ولكن لكل ان يهتدي اليها و يتبين معالمها

واليوم التي بمثل ذلك الصوت لاقول ان ذلك الذي يكتشف نفسه وسط المجتمع الصاخب ، و يتغلب على آلام اليأس والانفراد ليهدي الى العالم ثمرة معرفته واختباره فذلك هو الرجل الرجل

ولكن اسمحوا لي ، ايها العاملون ! فكم من مرة حيال ثمرة الرقي والانتاج تقول لنفوسنا : هذا العمل يشبه وجهاً يخيل الآن لي نفسي وكان من قبل غامضاً . وهذا الصوت شبيه بصرخة كانت تفطر وجداني وظلت الى اليوم بكاء . وهذه الشجاعة العظيمة إنما هي التحقيق الذي يطلبه قلق شبيبتي المعذبة الحائرة !

اننا اليوم في حاجة إلى الشخصيات الكبيرة لتنهض بنا وتلقي علينا من حكمتها وانوارها . لم اصور لكم صورة الرجل كاملة وذلك عمل لا يفيد اذ للنفوس اقاليم وامزجة وممكنات هي سر بين الفرد ونفسه . ولكن حسبي ان اكون قد ذكرتكم بذلك ليكون فلاحي عظيماً . حسبي ان اكون قد بثثت فيكم الرغبة في البحث عن مواهب الرجل الذي هو كل الرجل ، واثرت بينكم ، ايها الرجال والشبان ، موضوعاً تراجعونه في اجتماعاتكم ومنتدياتكم لأكون قد قمت بأجمل قسط من دوري النسوي . فعلى المرأة ان توحي وتستحث وعلى الرجل ان يبحث ويحقق . ورائدي في كل ذلك رأي الحكيم الصيني القائل : لئن حملت فرداً واحداً على البحث في موضوع يرفع نفسه ، ويرهف اخلاقه و يتعدى فيه حدود شخصيته المألوفة ، فذلك خير لي الف مرة من ان اخضع ملايين الشخصيات لرأي واحد ومذهب فرد . لان اخضاع الالوف عبودية . اما كسر قيود الفردية فثروة وعظمة وحرية !

(مج)